استراتيجيات التلقي، فعاليات تشكيل البنية الدلالية الكبرى شعر حلمي سالم نموذجا

الباحث/ شعبان نصر عبد الله حسن(*)

المقدمة :

شغلت استراتيجيات التلقي اهتمامات عدد كبير من النقاد في الآونة الأخيرة وذلك لأن إشكالية الشعر الحديث تتمحور حول قراءته، وقد طرحت «نظرية التلقي» تحليلا عميقا لفعل القراءة وممارسات القارئ العديدة لفهم النص الأدبي، ومن بين أهم الفعاليات التي يمارسها القارئ تلك التي تتعلق ببناء الجشطالت أو المدار أو البنية الدلالية الكبرى.

وقد تحدث فولفجانج إيزر في كتابه «فعل القراءة» عن عدد من استراتيجيات القراءة والتأويل، وأهمها ما يسميه الجشطالت (Gestalt) أو الصيغة الكلية للنص؛ حيث يعتمد هذا البناء على نشاط تركيبي يتم فيه تجاوز الأجزاء للوصول إلى صياغة كلية للنص، وهذ النشاط التركيبي يتضمن عمليات معقدة من الربط والاختزال والإضافة من أجل الوصول للموضوع الكلي للنص.

وقد وضع إيزر تصورا نظريا للكيفية التي يتشكل بها الجشطالت أثناء فعل القراءة، وهو يستعير هذا المصطلح من علم نفس الجشطالت (Gestalt psychology) على اعتبار أنه يشكل نظرية معارضة لمفاهيم البحث الدقيق ذات الجانب الواحد(١). إن الجشطالت هو حصيلة التفاعل بين النص والقارئ، فالمعنى

(*) باحث بمرحلة الدكتوراه قسم الدراسات الأدبية – كلية دار العلوم – جامعة القاهرة.

(١) من مبادئ علم نفس الجشطالت في الإدراك، والتي لها صلة بالإدراك الجمالي للأدب: ١– كل إدراك هو كل شامل، ٢– الكل يحتوي الأجزاء ويهيمن عليها، ٣– إدراك الكل لا يمكن أن يتم بمجرد الجمع البسيط بين الأجزاء. للمزيد، انظر: الشكل والخطاب مدخل لتحليل=

"لا يتجلى في الكلمات، وعملية القراءة لا يمكنها أن تكون مجرد تعرف على الدلائل اللسانية الفردية، ويتبع ذلك أن فهم النص يعتمد على إضمامات الجشطالت"[١]، ليصل القارئ في النهاية إلى "النواة الفكرية الإدراكية" (Noema)، والتي يتم الحصول عليها عن طريق أفعال إدراك القارئ، وتعمل هذه النواة على "الربط بين الدلائل وبين متضمناتها وتأثيراتها المتبادلة، وأخيرا بين أفعال التمييز عند القارئ وهكذا، ومن خلال هذه النواة، يبدأ النص وجوده كجشطالت في وعي القارئ"[٢].

إن فكرة المعالجة الكلية للمعلومات تقع في صلب اهتمام مجالات معرفية عدة، أبرزها الأعمال الحديثة حول الإدراك، والذكاء الاصطناعي، وعلم النفس المعرفي، وقد انعكس هذا الاهتمام على الاتجاهات اللغوية والنقدية، ولا سيما في ميدان تحليل الخطاب ولسانيات النص[٣]، فتم التركيز على قضية بناء الصيغة الكلية أو مدار النص (Topic) أو الثيمة (Thème).

إن التجارب العملية في الإدراك والفهم تشير إلى أن محتوى النص أو زبدته هو ما يمكننا تذكره، وليس كلماته وجمله، فالموضوع هو ما يظل عالقا في تصور

= ظاهراتي، محمد الماكري، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩١، ص١٨ وما بعدها، وانظر: علم نفس الجشطلت، بول جييوم، تر: صلاح مخيمر وعبده ميخائيل، مؤسسة سجل العرب، ط١، ١٩٦٣، ص٣٣ وما بعدها.

(١) فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب في الأدب، فولفجانج إيزر، ترجمة حميد لحمداني والجلالي الكدية، مكتبة المناهل – المغرب ١٩٩٤، ص٧١.

(٢) السابق، ص٧٣.

(٣) انظر: معجم تحليل الخطاب، باتريك شارودو ودومينيك منغنو، تر: عبد القادر المهيري وحمادي صمود، المركز الوطني للترجمة – تونس، ط١، ٢٠٠٨، ص٤٣ وما بعدها.

القارئ وتمثله الذهني[١]، ومن هنا بالغ كينتش في الاهتمام بالتصورات، وأهمل تماما جانب الصياغة والإخراج اللغوي، حتى أصبح التصور الذهني لديه هو النص[٢]، لكن الباحث الهولندي تون فان دايك تناول قضية موضوع الخطاب أو النص بشيء من الموضوعية والتفصيل، ووضع الكثير من المصطلحات الفاعلة في هذا السياق مثل مصطلح "البنية الكبرى" (Macrostructure) وهي تتعلق بالصيغة الكلية للنص، في مقابل "البنية الصغرى" (Microstructure) التي تشمل أبنية الجمل، والبنية الكبرى مصطلح دلالي "فهي لذلك تصور الترابط الكلي ومعنى النص الذي يستقر على مستوى أعلى من مستوى القضايا الفردية"[٣].

وعملية القراءة والفهم السليمة تقتضي تحديدا دقيقا للبنى الكبرى؛ لأن هذه البنى شرط ضروري لتفسير الجمل، وإرساء التماسك على المستوى الجزئي، "فمعنى النصوص لا يمكن وصفه بشكل كاف على المستوى الجزئي للجمل وحدها، لكن يجب تحديد المعنى النصي أيضا على مستويات أكثر شمولية"[٤].

وبهذا المعنى تصبح البنى الكبرى – والتي تشكل في النهاية الموضوع أو المدار – قيدا عاما، يراقب إنتاج أو فهم الخطاب، ويعمل على إنشاء تماسك إضافي بين الجمل[٥].

* * *

(١) تحليل الخطاب، يول وبراون تر: محمد لطفي ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، ط١ ١٩٩٧، ص١٢٩.

(٢) السابق ص١٣١.

(٣) علم النص: مدخل متداخل الاختصاصات، تون أ. فان دايك، ترجمة: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، ط١، ٢٠٠١، ص٧٥.

(٤) Teun A. van Dijk, Macrostructures: An Interdisciplinary Study of Global Structures in Discourse, Interaction, and Cognition , page٤٠.

(٥) Ibid, Page ٤١.